Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 4:4 (1969)

أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى

للشيخ علال الفاسى

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله ،

أصحاب المعالى ، سيدى الرئيس ، سيداتى و سادتى :

فى كنف الإمام على الرضا و فى مشهد عاصمة الروح والمعرفة نجتمع بدعوة من هذه الجامعة فى مؤتمر علمى ثقافى لإحياء ذكرى رجل اسلامى عظيم ، و فيلسوف نظار كبير هو أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى شيخ الطائفة و إمام من أئمة المذهب الشيعى الإثنى عشر . و ان فى اقامة هذه الذكرى لدليلا على تعلق العلماء الايرانيين بقيمهم المثلى و بمجد وطنهم الكبير و تراثه السامى ، و برهانا على حسن اتجاه هذه الجامعة التى تعرف كيف توجه الشباب الجامعى للثقة بنفسه و معرفة ماضيه و ما مكّنه من جهود بذلها العاملون لتكوين الدولة و حماية العقيدة و بناء المجتمع السليم .

و ان فى حضورنا نحن ممثلى الجامعات الاسلامية السنية لدليلا قاطعا على تقديرنا لرجالكم و اعتبارنا لهم من اعلامنا و قادة الفكر من آدابنا الاسلامية الواسعة و دليلا كذلك على توافق رغبتنا فى بعث روح الاخوة الإسلامية التى نادى بها النبى صلى الله عليه وسلم و ضحى فى سبيلها على كرم الله وجهه و ذريته الصادقون عليهم السلام ، و اذا كان فى الظروف التاريخية ما يبرر مع الاسف الاختلافات التى وقعت بين المسلمين فان العصر الذى نعيش فيه يدعونا إلى الوحدة و تناسى كل ما من شأنه ان يسىء بقضية الاسلام و يعوق عن العمل المشترك فى سبيل النهوض و رفع اسم الاسلام عاليا بين الأنام .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

ان التطور الاقتصادى و التقدم التقنى الذى حصل عليه غيرنا فى اثناء غفلتنا يفرض علينا ان نعمل يدا فى يد متآخين متحابين متمسكين بالعروة الوثقى و الدين الحنيف عاملين على تحقيق التضامن الاسلامى الذى انعقد له مؤتمر القمة الا سلامى الأول و الذى عقد من أجله بعد بضعة ايام التقاء وزراء الخارجية المسلمين فى جدة .

و اننى لأنتهز هذه الفرصة لتوجه نداءنا الى قادة الشعوب الاسلامية ملوكا و روءسا و حكومات ليبذلوا جهدهم فى سبيل تحقيق اهداف التضامن الاسلامى و اقامة امانة عامة دائمة لتنسيق العمل بين الدول الاسلامية .

و لى اليقين فى ان توجيهات صاحبى الجلالة شاهن شاه اريا مهر و أخيه جلالة الحسن الثانى ستساعد على بلوغ الهدف و اكمال القصد و التعاون على رفع الضيم الواقع على المسلمين و تحرير فلسطين و بين القدس و احياء مجد الإسلام و علومه ، و الله سبحانه و لّى التوفيق-

المدرسة الكلامية

آثار الشيخ الطوسى وآراؤه الخاصة بهذا العلم

بُعث الرسول صلى الله عليه و سلم فى العرب و الناس فى جاهلية جهلا و ضلالة عمياء و قد تناسّى الناس دعوات الرسل و ديانة الانبياء و استعاضوا عنها بوثنيات اخترعوها و اسماء سموها هم و آباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان ، و رهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم و لكن ابتغاء رضوانه فما رعوها من رعايتها بل اصبحت أداة تحريف للكلم عن مواضعه و تزوير للعقيدة عن أصلها ، و اخضاع للمؤمنين بها و تسخير لذويها لفائدة المسيطرين على الحكم و المتحكمين فى مصائر الشعوب. فكانت رسالته عليه السلام رحمة للناس كافة و تحريرا للعرب و للشعوب كلها من عبودية الجهل و الضلال و فتحا لعقولهم من ما غطى عليها من خرافات و أوهام ، و لقلوبهم كى تتلقى المعارك اللدنية و النظريات الكونية.

و كانت خطابات الله للناس كافة حملها إليهم النبى الأمين قرآنا يتلى ، و أحاديث تملى ، و دعوة إلى النظر و الاستدلال تجلى ، و براهين قاطعة و اقناعية تهدى.

أكد القرآن حقائق الوجود من حيث هو وجود ، و دعا الى الايمان بالله من حيث انه الاه ، و أعلن وحدانية الله و قدرته الشاملة و فاعليته الكاملة ، و انه الخالق الذى أوجد الكل من العدم ، مقابلا بذلك كل تصور انسانى أو جاهلى و كل قدم للمادة ، و كل خلود لها كما انكر كل تجسيم للاله فى صورة انسان أو غيره مبيّنا حدوث كل ماعدا الله و ان الجميع من صنعه و ان الطبيعة هو الذى جسمها ، و قد هدى الخلق الى التأمل فى عجائبها و اكتشاف معاليمها و التحكم فى عناصرها و بذلك جعله خليفته فى الأرض ، و أرسل إليه الرسل

و انزل عليهم الكتاب و الميزان كل وسائل الفكر و المعرفة ليندفعوا فى نطاق التجربة و العلم و يؤمنوا بالغيب الذى لا سبيل إلى معرفته لانه مما استأثر الله بعلمه .

كل هذه الأشياء و غيرها تحدث عنها القرآن و بينته السنة و هدى إليه الرسول بالموعظة و الإرشاد . و لم يكن ذلك مجرد حقائق تقرر و قضايا تذكر بل كان تبيينا سبيله العقل و الدلالة عليه ، وهديا يرشد إليه الفكر و يلقنه واقع الكون . (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى و فرادى ثم تتفكروا)

واجه النبى صلى الله عليه و سلم جاهلية العرب بوثنياتها و تقاليدها و ما أفسد القوم من فتوتهم ، بالتوجيه الصادق المدعم بالحجة و البرهان و البيان الخطابى المستمد من منطق الواقع و تجارب الأمم . و كم فى القرآن من آيات برهانية تهدى إلى استجلاء الحق من الطبيعة كدلالة على صانعها و من الانسان ككائن غريب خارق لما اعتيد من الكائنات (و فى الأرض آيات للموقنين و فى أنفسكم أفلا تبصرون ؟)

و واجه النبى أهل الكتاب و النصارى و اليهود فبيّن له ما حصل فى كتبهم من تحريف و فى دينهم من تزييف و أقام عليهم الحجة من قصص الأنبياء و المرسلين و حقيقة الدين مستدلا بالتاريخ و مؤكدا بالمنطق . (ما كان إبراهيم يهوديا و لا نصرانيا و لكن كان حنيفا مسلما و ما كان من المشركين) (و ما أنزلت التورات و الإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون) و تحداهم ان يجدوا فى دعوته ما يتنافى مع دعوة الرسل من قبله (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله)

و بين للمسلمين سبيل المناظرة و الجدال مع المخالفين فقال : (و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم و قولوآمنا بما أنزل إلينا و ما أنزل إليكم و إلاهنا و إلاهكم واحد و نحن له مسلمون) .

و إذن فالقرآن هو كتاب التوحيد الأول ، و السنة المكرمة هى دليله المعول ، و العقل الانسانى هو مفتاح النظر فيهما و الادراك لمعانيهما و مراميهما . و تأويل ما اشتبه من ظاهرهما . و قد اوجبا التفكر و التفلسف قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون و الذين لا يعلمون) و قال : (يؤتى الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا)، و قال سبحانه (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته و يزكّيهم و يعلّمهم الكتاب و الحكمة) و قال عليه السلام : لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق و رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها و يعلمها ،

إذن لاغرابة أن يتجه المسلمون إلى الفكر و يقرعوا أبواب العلم و يخوضوا فى كل ما يدعوهم له الاستطلاع و حب المعرفة ، و لقد كان لهم فى نزول القرآن و بيان الرسول ما يكفى حاجاتهم العقلية و الروحية فى حياته عليه السلام ، فكانوا يلقون الأسئلة فيجابون بما يطمئن ضميرهم و يثلج قلبهم ، و كانت الحجج المتوالية فى مقارعة الجاهليين و الكتابيين ، و هم يعرفون أسباب نزولها و ظروف خطابها ، مغنية لهم عن أن يشغلوا أنفسهم بغير مدارستها و التدبر فى اسرارها .

فلما توفى صلى الله عليه و سلم و واجه المسلمون الحياة و ما فيها من مسئوليات و تساوى مقامهم أمام النظر و أمام الحق ، اذ ليس هناك راهب و لا كاهن ، و انما هنالك كتاب و سنة و فهم يؤتى الرجل منهما كما قال على كرم الله وجهه — بذلوا جهدهم فى

الادراك و قاموا بمسؤولياتهم فى ميدان العقل كما فى غيره من الميادين فجدت المسائل و خاضوا فيها ، و وجهت إليهم الشبهات فكشفوها ، كل ذلك بوسائلهم النظرية ، و روحهم الفطرية و كان ذلك بدء علم الكلام .

و الحق ان علم الكلام فلسفة إسلامية مبتكرة اخترعها المسلمون مستمدين لها من البرهان القرآنى و التجربة الانسانية ، كما خصها القرآن و حدث بها النبى .

و قد ظل هكذا علما خالصا إسلاميا مستقلا طيلة خمسة قرون ثم شابته من الفلسفات المترجمة و العلوم المستجدة ما هاج المتكلمين المحافظين الذين ارادوا ان يبقى للمسلمين منطقهم التجريبى و بحثهم الاستقرائى و لا يكتفوا بالمنطق الصورى و البحث النظرى المحض .

و علم الكلام الاسلامى هو علم البحث عن وجود الله ، و صفاته و ما يجب له تعالى و يجوز او يستحيل فى حقه ، كما يبحث عن الرسالة و معجزات الرسول و ما يجب له أو يجوز فى حقه و ما يستحيل عليه ، و غايته اقرار قواعد العقيدة و البرهنة على إثباتها .

و يقوم نوعان من الأدب بدور حاسم فى توضيح هذا العلم و مقاصده :

الاول يقوم بسرد العقائد حسب ورودها ، و كما يجب الايمان بها و الثانى يوضح آراء المخالفين و بيان أغلاطهم و تعداد فرقهم .

و قد كان السلف الأولون يكتفون بذكر العقائد مرتبة ترتيبا مدرسيا دون جدل و لا حوار معتمدين على التسليم فيما لم يدركوه مما لا يعلم تأويله إلا الله ، ثم تطورت الأساليب بعد ما تكونت النزعات المتعددة و أصبحت كل فرقة تسرد العقائد كما تراها ، فاضطر المتكلمون إلى الخوض فى مسائل العلم و الاستدلال عليها ، و بيان أغلاط المخالفين فيها .

و قد تجاوز المسلمون الأولون ، المنهج التلقائى إلى المنهج التأملى الذى يستخلص بها المفكر القواعد العامة التى يصوغ له تطبيقها عند التفكير.

و المنهج التأملى الذى اكتشفه المتكلمون هو أولا ، التعريف أو الحد بمعنى التعبير بالخواص اللازمة التى لا تحتاج إلى ذكر الصفات المشتركة بينه و بين غيره(١) و هو ما يخالف الحد الارسطاطاليسى ، و ينكر المتكلمون الأولون البرهان الكلى فليست عندهم القضية الكلية التى هى مادة البرهان عند ارسطو ، و انما يعترفون بالقضية الجزئية التى تربط بين محسوس و محسوس ، بين افراد لا بين الافراد.

و بعد ذلك يأتى القياس الذى يختلف عن قياس أرسطو لانه ليس انتقالا من حكم كلى إلى أحكام جزئية أو من حكم عام إلى حكم خاص بواسطة الحد الثالث و انما هو انتقال من حالة جزئية إلى حالة جزئية لوجود جامع بينهما بواسطة تحقيق علمى دقيق(٢)

و قد أقام المسلمون قياسهم على ما أقامه عليه اليوم جون ستوارت بيل ، اى قانون العلة و الاطراد ، و بذلك ابتكروا لعلم الكلام و علم الأصول ، ثم بالتصوف منهجا تجريبيا ، لم يسبقوا إليه.

و إذا كانت المدرسة اليونانية الاسلامية قد استمدت بعد ذلك من آراء قدماء الفلاسفة ، فان مؤسّسى علم الكلام من مختلف الفرق اعتمدوا على قواعد مغايرة و نظريات لا تتفق مع المنطق و الفلسفة اليونانيتين ، و كان المصدر الاسلامى لبراهينها هو القرآن و السنة و المنطق الحسى التجريبى.

---

(١) النشار مناهج البحث ص ٧٥ النشار نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ص ٩٢ و ما بعدها ،

(٢) لوجى جاردى الاسلام دين وامة.

يتفق المسلمون كلهم على وجود الله و وحدانيته و انه لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد ، كما يتفقون على رسالة محمد صلى الله عليه و سلم و انه خاتم النبيين و جاء بالبرهان والقرآن و البشارة ، بالثواب و العقاب جزاء العمل و البعث و النشور ، و دعانا الى الايمان بالغيب و بالشهادة ، كما أمرنا بالطاعة ، و حفظ الجماعة و انها توفى صلى الله عليه و سلم حتى ترك الدين كاملا و لم يبق لأحد بعده ما يقول ،

ثم لما توفى عليه السلام جدت مسائل من أهمها مسألة الخلافة ، و هل هى مصلحية شورية ، بحيث يجتمع المسلمون لمبايعة من يشاؤون من المسلمين كيف ما كانت هويته اذا توفرت فيه شروط معينة أم هى محصورة فى قريش ، أم أقاموا الذين يختار المسلمون منهم من يريدون لبيعته أم هى خاصة بعلى رض و ذريته بناء على وصية من الرسول صلى الله عليه و سلم ثم من كل خليفة لمن يليه من ذريته .

و إلى جانب ذلك وقع الاختلاف فى فهم بعض الآيات القرآنية التى يظهر تعارضها بادىء الرأى ، كيف يمكن تأ ويلها و التوفيق بينها ، و من هذه المسائل ما يرجع للانسان ، هل هو مسير أم مخير ، و منزلة العمل من الايمان ، و التشبيه و التنزيه ، و المنزلة التى يوضع فيها العاصى بين منزلتى المؤمن و الكافر ، إلى غير ذلك من القضايا التى تناولتها المدرسة الكلامية و خاضت فيها الفرق المختلفة ،

و إلى جانب هذا و ذاك دخلت قضايا الفلسفة اليونانية و شبهات المتفلسفين من اليهود و النصارى و بعض الديانات الشرقية ، مما أدى إلى ضرورة مجابهة كل جبهة بما تستحقه من عناية و اعتبار للتوفيق بين الأدلة أحيانا و دفع الشبهات الأخرى .

و حول هذه النظريات و الفلسفات تكونت النزعات الكلامية

المختلفة و التى تنضوى غالبا فى فرقتين كبيرتين من المسلمين هم أهل السنة و الشيعة. و لذلك لاحظ 'قولد ساهير' أنه لاينبغى ان يطلق لفظة الفرق على طوائف أهل السنة من مرجئة و كلامية و أشعرية و ما تريدية و مشبهة أو اعتبار المعتزلة للفرق و انما يجب ان يخص اسامى بالفرق أو الفئات التى اختلفت مع جمهرة المسلمين فى مسألة الاجماع كالخوارج الذين لم يتفقوا مع المسلمين فى إجماعهم على خليفة من الخلفاء ، و من هذا الباب الطائفة الشيعية التى تشيعت لسيدنا على خاصة و أفردت الإمامة له و لمن بعد من بنيه و إذن فالتقابل ان ما يقع بين أهل السنة من جهة و بين الشيعة من جهة ثانية و الخلاف فى و اقع الأمر سياسى يتعلق بنظام الحكم و لا يرجع إلا بصفة تابعة لبعض مسائل الإعتقاد.

و من غير أن نخوض فى تفاصيل كل من المذهبين و تاريخ الحزب الشيعى و تطوراته نشير إلى أن الفرق الكلامية تعددت ضمن الشيعة كما تعددت ضمن السنة و الحمد لله على أن ذلك لم يغير شيئا من أصول الدين الإسلامى الذى هو توحيد الله و الإتجاه لقبلة واحدة و الايمان برسالة محمد خاتم النبيين و بالقرآن و السنة و محبة آل بيت الرسول .

و لقد تبلور المذهب السنى فى الجهود التى بذلها الأشعرى (٩٣٢) لتأيد العقيدة بالأسلوب البرهانى الذى كونه اثناء وجوده فى صف المعتزلة و فى حواره معهم بعد أن انفصل عنهم و هيأ الميدان للاستدلال البرهانى و لقد خدم الأشعرى مذهب أهل السنة خدمة لا تضاهى سواء بجهوده الفردية كما قلنا و بما خلفه من كتب فى الموضوع ككتاب الايمان و لا سيما بمن انجبهم من تلامذته و مريديه و فى مقدمتهم الإمام الباقلانى (١٠١٢) صاحب اعجاز القرآن ثم حمل مشعل الكلام بعد الباقلانى إمام الحرمين (١٠٨٥) الذى يعد بحق

متكلم نظارة و جاء بعده تلميذه الفاضل الإمام أبو حامد الغزالى .

و هنا نجد أنفسنا فى مدينة طوس حيث ولد هذا الرجل الكبير الغزالى الذى أعطى لعلم الكلام السنى وجهة جديدة خرج بها من المعاندة و المقارعة إلى البحث المتزن العميق و قد تلقى الغزالى علومه الأولى فى قرية الغزالة مولده قرب طوس و انتقل إلى نيسابور حيث أخذ عن شيخه إمام الحرمين ثم استدعاه نظام الملك إلى بغداد و عيّنه مدرسا بالمدرسة النظامية و كان جهد الغزالى المتواصل فى هذه المرحلة و بعدها إلى آخر حياته مصروفا لإبطال مزاعم الفلاسفة و تثبيت العقيدة الاسلامية و الذب عنها أمام كل المذاهب و الفرق و فى هذا السبيل وضع كتبا كثيرة منها مقاصد الفلاسفة و تهافت الفلاسفة و المنقذ من الضلال و توج اعماله بكتاب احياء علوم الدين حتى أصبح يدعى بحجة الاسلام و كان قد آثر مذهب التصوف المعدل اى التجربات الاخلاقية على غيرها من تجارب الفكر .

أثر الغزالى كثيرا فى علم الكلام و بعد خروج الفكر الإسلامى من نطاق الاعتزال إلى ميدان الفلسفة حول الغزالى المذهب الأشعرى من المسائل الكلامية إلى قضايا الفلسفة المتنوعة و يمكننا أن نقول أن عالم الاسلام قد انطبع بطابع الغزالى فى المشرق و المغرب سواء فى ميدان الشريعة و الفلسفة أو فى ميدان التصوف و ان الغزالى حرر الفكر الاسلامى من عقدة النقص أمام الفلسفات الاجنبية و فتح للفلسفة الاسلامية المستقلة مجالا دخله الكثيرون من رجال الفكر و النظر و هذا هو عطاء مدينة طوس لأهل السنة .

أما الفكر الشيعى فقد انصرف بعد انتهاء السباق فى انشاء الفرق إلى جمع التراث و تنظيمه على أساس الاثنى عشرى الذى استقر أخيرا بتحديد عدد الأئمة فى هذا الرقم .

يقول الدكتور مصطفى الشبيبى لقد كان اقرار التشيع الإثنى عشرى

و صبه فى قالب ثابت من الصعوبة بمكان فلقد كان التشيع يستغرق خليطا متنافرا من الناس و متناقضا لعله لم يجتمع له مثيل فى أية طائفة أخرى فى الدنيا غير أن الجامع بين ذلك كله كان تفضيل على و الروحانية التى أصبغت على الائمة ثم المهدية ، اما ما عدا ذلك فقد كان شيئا فريداحقا (١) و بعد ما وضع الكاتب صورة تخطيطية للتشيع فى القرنين الرابع و الخامس تبين ما كان فيه من تيارات فكرية متنوعة و اعتماد التشيع فى تكوين عقيدته على الأخبار و الأقوال المروية عن الائمة و نفوره من القياس العقلى و التناقض الشديد بين اخباره داعيا إلى ضرورة الاجتهاد الشخصى فى تبنى وجهة نظر معينة مدعمة بالجدل و المنطق(٢) و بخاصة فيما يتعلق بالمهدية بين ان الشيعة أخذ وا الاجتهاد عن المعتزلة المعاصربن لهم و عن سلفهم من المتكلمين ممن عرفوا به من قبل كهشام بن الحكم و من هنا نهض الاجتهاد بوصفه و سيلة لارساء المذهب ثم لما بلغ الافراط فى استعماله حد التفريط حاول الفقهاء البارزون ان يعودوا إلى الأخبار المضمنة فى كتبهم الأربعة من جديد لتعود النهاية إلى البداية من جديد .

و قد التقى التصوف مع التشيع فى هذا المدى الواسع و بذل الدولة جهودها و جهود مؤيديها من الفقهاء و المتصوفين لتمهيد السبيل لتلاحم التشيع و التصوف و توثيق الروابط بين التصوف و مذهب أهل السنة على يد سهل التشرى و الجنيد البغدادى و أبى بكر الطمستانى و النصربادى و القشيرى و الغزالى ، و جاء التتار فحالفهم الشيوعيون الاسماعيليون و احتمى بهم الامامية فى العراق و دخلت فتوة الفرص فى العالم الاسلامى كعقيدة صوفية تطبيقية تمثل المثل الأعلى الاخلاقى الصوفى بما فيها من التضحية و البذل

١- الشبيبى ، الفكر الشيعى و النزعات الصوفية صفحة ٥٧ ،

٢- انظر تلبيس ابليس صفحة ٩٩ ،

و هكذا أمكن للخليفة الناصر لدين الله العباسى أن يلحق منظمة الفتيان بالدولة سنة ٥٧٨—١٢٨٢ تحت اشرافه و جعل على ابن أبى طالب مثلا اعلى لكل الفتيان و وجه منشورا بذلك كما تكونت فى الشام فتوة نبوية لمقاومة الروافض و بقول الدكتور الشيبى انه كان من أثر ربط الفتوة بعلى ابن أبى طالب فى التصوف العملى أن الدولة الصفرية التى ورثت التموريين بعثت هذا الاتجاه و استطاعت ان تعلن التشيع فى يسر و سهولة ، و كان ذلك البداية الحقيقية لنشاط التصوف فى تأثيره على التشيع(١)

بداية تدوين الحديث عند الشيعة

عادت النهاية إلى البداية باستقرار أمر التشيع على الاستناد على المهدية الدائرة حول محمد بن الحسن الإمام الثانى عشر و بما أن الشيعة تأخروا فى تدوين الحديث عن أهل السنة فقد انتهزوا فرصة ابتسام الحظ لهم و اخذوا يدونون الحديث بصورة أسلوبية و قد قسم بروكلمان أسماء كتب الشيعة فى الحديث و الفقه قسمين كتاب الزيدية و كتاب شيعة الفرص(٢) و القسم الثانى هو الأهم فى دراسة عقيدة الامامة و نشاط هذا القسم هو الذى أدى إلى ظهور أمهات كتب الحديث لدى الشيعة و مع هذا النشاط يظهر الدور الذى قام به عالم طوس الكبير شيخ الطائفة الطوسية و هو أحد ثلاثة يحملون اسم محمد كتبوا الكتب الأربعة التى تعتبر أمهات كتب الحديث عند الشيعة (٣)

و هؤلاء الائمة الأربعة هم أولا محمد بن يعقوب الكليغى و كتابه الكافى فى علم الدين يشتمل على ستة عشر ألف حديث و الثانى هو محمد بن على بن الحسين الصدوق القمى و مصنفه فى الحديث هو من

---

(١) الشيبى الفكر الشيعى صفحة ٦٧ ،
(٢) بروكلمان الجزء الأول صفحة ١٨٧ — ٤٠٤ ،
(٣) و ينلدسن عقيدة الشيعة صفحة ٢٨٣ النص العربى ،

لايحضره الفقيه و يضم أربعة آلاف و ٤٩٦ حديثا و ثالث المحدثين الثلاثة فى هذه المرحلة هو أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى الذى تقام ذكراه اليوم و هو أكثر هؤلاء الثلاثة نفوذا فى نشر المذهب الشيعى اذ زاد تلامذته على الثلاثمائة و وقع على تقدمه و فضله الإجماع و صنف فى جميع علوم الاسلام و قد أخذ عن إمامين كبيرين كان لهما فضل فى التمهيد لهذه المرحلة التحروية للشيعة الا و هما الشيخ المفيد و الامام السيد المرتضى الملقب بعالم الهدى اذ هو من أحفاد الامام موسى الكاظم ورئيس الطائفة الشيعية فى بغداد (١)

كان الشيخ المفيد زعيم الطائفة الشيعية فى العراق و هو محمد بن محمد ابن النعمان أبو عبدالله المعروف بابن المعلم و كان له مجلس نظير داره بدرب رياح يحضره كافة العلماء و كان له منزلة عند أمراء الأطراف يميلهم إلى مذهبه ، توفى ببغداد ليلة الثالث من شهر رمضان سنة ٣٦٣ (٢)

و لما توفى الشيخ المفيد انتقلت رئاسة الشيعة إلى أعظم تلامذته الشريف المرتضى أبى القاسم على بن الحسين الموسوى اخى السيد الرضى.

و لما توفى لخمس باقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٣٦ استقل أبو جعفر الطوسى بالزعامة الدينية و اصبح شيخ الطائفة الشيعية دون مدافع .

و لد الطوسى سنة ٣٨٥ فى مدينة طوس بخراسان و بعد ما درس فى بلاده ما أتيح له ان يدرس ، رحل و هو ابن ٢٣ سنة إلى العراق فنزل ببغداد و تفقه أولا بالفقه الشافعى ثم أخذ الكلام و الوصول عن الشيخ المفيد(٣) ، ثم انضوى الى الشريف المرتضى و بعد موت

---

(١) انظر دوايت امد و نلتسن عقيدة الشيعة صفحة ٢٨٥ ،
(٢) ابن الجوزى المنتظر الجزء الثامن صفحة ١٢ طبعة خير آباد دكن ،
(٣) عمر الرضى كحالة معجم المؤلفين الجزء التاسع صفحة ٢٠٢ ،

هذا الأخير انتصب الطوسى للتدريس و التعليم و كانت داره فى طرف بغداد مرتع الفضل و مقصد الوافدين و تتلمذ عليه عديد من الطالبين حتى بلغ عدد تلامذته أكثر من ٣٠٠ من مجتهدى الشيعة و من أهل السنة ما لايحصى كثرة(١) .

و قد جعل له خليفة زمانه القائم بأمر الله عبدالله بن القادر بالله أحمد الخليفة العباسى كرسى الكلام و الافادة ثم هاجر بعد ذلك إلى النجف و عاش ١٢ سنة فى بغداد بعد انتهاء حكم البويهيين و قد أحرقت كتبه و كراساته و الكرسى الذى كان يدرس عليه و ظن ذلك من عمل أعدائه الذين اشتكوه إلى الخليفة و ادعوا انه لعن الصحابة فى أحد مصنفاته بقوله الظلمة الأوائل الذين لعنوا و لما جيء به أمام الخليفة أنكر ذلك و قال يا أمير المؤمنين الظالم الأول هو قابيل لقتله هابيل و الثانى هو قيدار بن سام و الثالث قاتل يحيى بن زكرياء و الرابع ابن ملجم قاتل على عليه السلام و بذلك دفع التهمة عن نفسه و كانت هجرته إلى النجف سنة ٤٤٨ و بقى فيها ١٢ سنة حيث أسس حول الضريح العلوى الطاهر وضعا دراسيا منتظما و كثرت الرحلة إلى النجف فى عهده و توفى الطوسى فى النجف سنة ٤٦٠ بعد ان بلغ الخامسة و السبعين من العمر .

يقول السيد حسن بحر العلوم فى مقدمة طبعة تلخيص الشافى أن النجف ببركة هذا الرجل العظيم الطوسى و مواصلة جهاده الاسلامى فى ذات الله أصبحت مثارا للاعجاب و منارا للعالم المتحضر حيث جعل منها دارا للعلم و معهدا للتدريس و جامعة اسلامية كبرى تتحدى بفضل الجهاد و المثابرة العالم باسره فى العلم و التحقيق و الانهماك فى سبيل الحق و الواقعية ، و كتب الدكتور محمد الخضيرى فى مجلة رسالة الاسلام فصلا بعنوان الشيخ الطوسى مؤسس مركز العلم بالنجف

١- مقدمة طبعة رجال الطوسى بقلم السيد محمد الصادق آل بحر العلوم .

قال فيه : رجل واحد يقال له الشيخ الطوسى فذ من علماء الاسلام دفعته مؤلفاته الكثيرة العدد و جهوده العلمية المثمرة الى مرتبة علمية ممتازة لايناله فيها أحد استحق بها أن يمنحه مواطنوه هذا اللقب (شيخ الطائفة) تشريفا له بين جميع من ينتسب لمدينتهم ذات المجد التليد ، و استحق الشيخ عند الشيعة لقبا آخر يزيد عن اللقب الأول فى مغزاه و يعبر فى فصاحة لا مثيل لها عن تقديرهم له و يعين منزلته بين جميع الطائفة الاثنى عشرية (١)

و لقد أثنى كثير من علماء السنة و الشيعة القدامى و المحدثين على مقدرة الشيخ الطوسى و تفانيه فى خدمة العلم و مهارته فى فقه السنة و فقه الشيعة معا .

هل مر الشيخ الطوسى بالاعتزال ؟

المعروف عن الطوسى انه شيخ الطائفة و معنى ذلك انه شيعى اثنى عشرى من أئمة المذهب و المنافحين عنه و لاشك انه كان كذلك طيلة حياته غير أن الدكتور الخضيرى يؤكد أنه اشتهر عن الطوسى فى حداثته انه اتبع مذهب المعتزلة و لكن ما وصل اليه من خبر ذلك لا يتجاوز هذا التقرير و لا يحتوى على شئ من التفصيل و البيان و ربما كان المقصود بفترة الحداثة التى تابع فيها الاعتزال هى الفترة الأولى من حياته التى قضاها فى خراسان قبل انتقاله فى سن الثالثة و العشرين إلى العراق ، و يعلق السيد آل بحر العلوم بعد نقله ما سبق قائلا : لا يوجد فى المعاجم المعتمد عليها عند الطائفة الشباعة منزل المعتزلة حتى فى فترة حداثته التى قضاها فى خراسان قبل ورود العراق فليلاحظ ذلك ـ انتهى .

١ـ مجلة رسالة الاسلام التى تصدر بالقاهرة العدد الأول من السنة السابعة سنة ١٣٧٤ صفحة ٤٠ .

و الواقع ان كثيرين من شيوخ الشيعة و المتكلمين تبنوا طريقة المعتزلة و أصولهم مع التنافر الواضح الذى بين المذهب العقلى التعليلى الذى دان به المعتزلة و الأساس الروحى الذى يعتمد على التسليم بما يرد عن الامام و الطاعة العمياء له الذى قام عليه التشيع فى جوهره(١)

و ذكر أبو الحسن الأشعرى فرقة من المتكلمين الشيعيين سماهم القائلين بالاعتزال و الإمامة(٢) و اتهم صاحب روضات الجنات صفحة ٥٨١ و قصص العلماء صفحة ٣٠٢ الطوسى بالخبط و الخيالات و العمل بالقياس و كذلك القول بالوعيد أولا(٣) و يذكر عن النجاشى أن ذلك و ما أشبهه كان السبب فى تأليفه كتاب الرجال و تقديمه الشريف المرتضى(٤)

و أيضا فمن الممكن القول بأن الطوسى مال للاعتزال فى شبابه ثم رجع من مغامرته الى المذهب الاثنى عشرى و المهم انه استمر فيه حتى وفاته رحمه الله و اذا ثبت ذلك فلاغرابة أن نراه بعد ان استقر فى شيعيته و تبحر فى معارفه يبيح لنفسه القول بالوعد و الوعيد فى الثواب و العقاب اى وجوب اثابة المطيع و معاقبة العاصى عن البارى عز و جل و ذلك مذهب اعتزالى و معارض لرأى الامامية الصريح و قد جاء فى كتاب الصدوق فى الاعتقادات ان اعتقادنا فى الموعد و الوعيد ان من واعده الله على عمل ثوابا فهو موجزه و من عاهده على عمل عقابا فهو بالخيار ان عذبه فبعدله و ان عفى عنه فبفضله و ما ربك بظلام للعبيد ، و المذهب الشيعى فى هذا متفق مع

---

(١) انظر أوائل المقالات للشيخ المفيد صفحة ٤٦ - ٩٥ ،
(٢) الدكتور الشبيبى الفكر الشيعى صفحة ٦٠ ،
(٣) نفس المصدر صفحة ٦٢ ،
(٤) النجاشى الرجال صفحة ٢ ،

رأى الأشاعرة الذى يقول :

لو رحم العاصى و عذب المطيع أو رحم الكل و عذب الجميع
لكان ما فعل فى ذا ممكنا و كان فعله جميلا حسنا

و لكن الأشاعرة يقولون من بعد أن ارادته تعالى اقتضت حسب ما يدل عليه وحيه و يرشد اليه عدله و كرمه ان يفى بالوعد و يتجاوز عن الوعيد لان ذلك من اخلاق الكرام كما يقول الشاعر العربى :

و انى إذا أوعدته أو وعدته لمخلف ايعادى و منجز موعدى

و لعل الطوسى رجع عن رأيه ذلك كما قال العلامة فى رجاله .

هل كان الطوسى شافعيا ؟

قال السويكى فى طبقات الشافعية أبو جعفر الطوسى فقيه الشيعة و مصنفهم كان ينتمى إلى المذهب الشافعى له تفسير فى القرآن و املاء أحاديث و حكايات تشتمل على مجلدين قدم بغداد و تفقه على المذهب الشافعى و قرأ الأصول و الكلام على أبى عبد الله محمد بن النعمان المعروف بالمفيد فقيه الإمامية(١) و ممن ذكر الطوسى على انه منتم للمذهب الشافعى صاحب كشف الظنون الذى قال هو أبو جعفر محمد ابن الحسن الطوسى فقيه الشيعة كان ينتمى إلى مذهب الشافعية(٢)

و يقول الشيخ محمد الصادق آل بحر العلوم ان نسبة الطوسى للمذهب الشافعى لا حقيقة له فان الشيخ لم يكن مقلدا لأى أحد بل هو مجتهد مطلق لا يأبه إلا بما ساعد عليه الدليل و اقتضاه البرهان

---

(١) السويكى طبقات الجزء الثالث صفحة ٥ ،
(٢) كشف الظنون الجزء الاول حرف ت تفسير الطوسى ،

الصادق ، و لقد حاز الثقة التامة من طبقات الشيعة جمعاء فى رواية الحديث و تحليله(١)

و نحن إذا رجعنا لكتب الطوسى الفقهية و الحديثية نجد صحة ما قاله السيد محمد الصادق فالطوسى مجتهد إلى حد كبير يستنبط الأحكام بقواعد الأصول التى ارتضاها من متن السنة التى رواها و هو بذلك لا ينتمى لمذهب معين من مذاهب الفقهاء بل يوافق بعضهم و يخالف الآخرين و ربما خالفهم جميعا كما فى ابتكاره القول بعدم تحريم تصوير ذات الأرواح مطلقا و لو بنحو التجسيم مستنبطا ذلك من قوله تعالى (اتخذتم العجل من بعده و انتم ظالمون) و فسر ذلك بمعنى انكم اتخذتم إلاها لأن بنفس فعلهم لصورة العجل لا يكونون ظالمين لان فعل ذلك ليس بحضور و انما هو مكروه و اجاب عن الحديث الصحيح لعن الله المصور بانه لعن لمن شبه الله بخلقه او اعتقد فيه أنه صورة فلذلك قدر الخلا فى الآية كانه اتخذتموه إلاها و ذلك أنهم عبدوا العجل بعد موسى لما قال لهم السامرى هذا إلاهكم ذلك رأى الطوسى الذى عبر عنه فى تفسير الآية من كتابه التبيان و هو رأى يخالف تفاسير المفسرين قاطبة و ما أفتى به فيما نعلم احد غيره من العلماء ، فالطوسى إذن كان يسمح لنفسه بأن يجتهد و يقترع قولا مخالفا لما اتفق عليه الجميع اذا ظهر له وجه لذلك من فحوى آية أو حديث ، و لعل دراسة الطوسى لفقه الشافعية و تبحره فى علوم أهل السنة و الشيعة معا هو الذى جعل البعض يعتقد شافعيته و الأقرب أن يقال ما قاله أبو زهرة أنه كان عالما بالفقه المقارن متبحرا فى أسباب الخلاف و مناهج الأدلة فى المذاهب السنية و الشيعية جميعا ،

درجة الطوسى الحديثية

قلنا أن الطوسى ثالث المحمدين الثلاثة الذين دونوا الكتب

---

(١) مقدمة طبعة رجال الطوسى صفحة ٣١ ،

الأربعة فى أحاديث الشيعة و هو فى المنزلة عندهم بعد الكليمى و الصادوق و أهم مصنفاته هما الكتابان الباقيان من الكتب الأربعة.

(١) تهذيب الأحكام و يشتمل على ثلاثة و عشرين كتابا أولها كتاب الطهارة و آخرها كتاب الديات و قد ألفه قبل الاستبصار و ذكر فى مقدمته أسباب تأليف له و هى ما وقع فى أحاديث الأصحاب من الاختلاف و التباين و المنافاة للتضاد حتى لا يكاد يتفق خبر إلا و بازائه ما يضاده حتى جعل غير الشيعة ذلك من أعظم الطعون على المذهب و تطرقوا بذلك الى ابطال المعتقد و روى عن شيخه المفيد أن أبا الحسن الهارونى العلوى كان يعتقد التشيع و يدين بالامة فرجع عنها لما التبس عليه الأمر فى اختلاف الأحاديث و ترك المذهب و دان بغيره مما لم يتبين وجوه المعانى الخ... و اذا فالشعور بخطر الاختلاط الواقع فى الأحاديث عند الشيعة هو الذى حمل (بعض الأصدقاء) على ان يذاكروا الشيخ فى الموضوع و يطلبوا منهم علاجه بشرح مقنعة السيد المفيد و هو الذى دعا الطوسى ان يستجيب لهم و يؤلف شرحا على المقنعة يدل اسمه على المقصود منه و هو تهذيب الاخبار و تنقيحها و تأويل ما التبس منها و مع انه صرح بكونه لم يقصد من تأليف هذا الكتاب بيان ما يتعلق بالاصول اى العقيدة فان اهتمامه بتثبيت أحاديث الشيعة فى الأحكام هو حماية لأصل من أصول الاستدلال الاعتقادى أيضا و دفاع عن الطائفة و آرائها و معتقداتها و قد لاحظ مترجمو الطوسى أنه لم يلزم ما التزم به فى مقدمة هذا الكتاب من البحث فى نوع التأليف الذى ينسب إليه الحديث و أسلوبه و اقتصر على أحاديث الأصحاب ،

(٢) كتاب الاستبصار فيما اختلف من الأخبار و هو أحد المجامع الحديثية المعمول عليها عند الإمامية و يقع فى ثلاث مجلدات اثنان منها فى العبادة و الثالث فى أبواب الفقه الآخر من معاملات و عقود

و افادات و أحكام . و قد أحصى الشيخ أحاديثه فى خمسة آلاف و خمسمائة و احد عشر حديثا و قال حصرتها لا لاتقع فيها زيادة أو نقصان. و يقول الطوسى فى آخر القسم الثانى من الجزء الثالث من كتاب فى بيان طريقته فيه كنت سلكت فى أول الكتاب ايراد الأحاديث لأسانيدها و على ذلك اعتمدت فى الجزء الأول و الثانى ثم اختصرت فى الجزء الثالث وعولت على الابتداء بذكر الراوى الذى أخذت الحديث من كتابه أو أصله على أن أورد عند الفراغ من الكتاب جملة من الأسانيد يتوصل بها إلى هذه الكتب و الفصول حسب ما عملته فى كتاب تهذيب الأحكام.

و للطوسى زيادة على هذين الكتابين كتاب الفهرست فى كتب الشيعة التى يرجع إليها.

و الملاحظ ان كتب الحديث الشيعية الأربعة جمعت كلها فى الدور البويهى (٩٣٢—١٠٥٥) و لذلك لم يمكن للمحدث الشيعى ان يسير على نهج المحدثين الأوائل بذكر السند المتصل لكل حديث إلى صحابى يرويه مباشرة عن النبى صلى الله عليه و سلم فاستعاض الشيعة عن ذلك بعقيدتهم بعصمة الأئمة فلم يعودوا يحتاجون الى تسلسل السند إلى الرسوم بل يكتفون بذكر ثلاثة أو أربعة افراد من الثقات سمعوا عن أحد الائمة ثم يرفعونه إلى حيث يريدون و عمدتهم فى ذلك إلى الرسول هم الائمة(١).

و يذكر الشيعة أن أحاديث الائمة إلى وفاة الحسن العسكرى كانت مضمنة فى أربعمائة كتاب سميت بالأصول ثم نقيت هذه الأصول و نخلت حتى استقرت الشيعة على الكتب الأربعة المذكورة.

و يذكر التنكابنى أن الأصول الأربعمائة إنما هى نقاية من أربعة

---

(١) دونلدسن عقيدة الشيعة صفحة ٢٨٦ ،

آلاف سبقتها روعى فيها أن تخلو من التناقض و عولج ما ظهر فيه تناقض فى هذه المجموعة بصبها فى أربعين أصلا أخذت منها الكتب الأربعة المذكورة .

و عليه فالطوسى من الأربعة الذين تحملوا مهمة الاختيار للاحاديث و صبها فى قالبها الأخير و المفروض ان يكون قد قام بما يجب عليه من تعديل و تجريح و تنبيه على قيمة الحديث من جهة الرواية بقدر ما يهتم بتأويل معناه من جهة الدراية ، و لكنا نجد الدكتور الشبيبى ينعى على المحمدين الثلاثة أنهم لم ينهجوا منهج أهل السنة فى تسجيل الصحاح من الأحاديث و انما اختاروا أن يكد سوا كل ما تراق معهم فيما عدا الصريح منهم فى التأليه و الحلول و منها و من هنا و جدنا فى هذا الكتاب (الكافى للكلينى) ٥٠٧٢ حديثا صحيحا تقابلها ٩٤٨٠ أحاديث ضعيفة و الأمر كذلك فى الكتب الرئيسة الأخرى(١) قال و لما كتب الطوسى فهرسته الذى ترجم فيها لرجال ذوى عدد من الشيعية و جدناه يتفادى فى مواضع كثيرة وصف بعض المصنفين بأوصافهم لما عرف عنه من غلو و كذب و انتماء إلى فرق لا يعترف بها الشيعة المعتزلون كالحسين ابن حمدان صفحة ١٠٣ من الفهرست و عبد الرحمان ابن الحجاج صفحة ١٨٠ و عبيد الله بن هاشم الحضرمى صفحة ١٩٤ و غيرهم .

كان هذا مع أنه أشار إلى أنه سيورد ما قبل فيه من التعديل و التجريح و هل يعول على روايته و قد لاحظ الشيعة أنفسهم هذا المدى الواسع من الاختلاف و التناقض فلم يحاولوا معالجته بالحد منه و اسقاط ما يتسبب فى ذلك و انما نسبوه الى التقية و رووا عن الائمة انهم قالوا نحن أوقعنا الخلاف بين شيعتنا فالسوا بقى لهم ولنا و كان الشيخ الطوسى نفسه يقول ان كثيرا من مصنفى أصحابنا

(١) الشبيبى الفكر الشيعى صفحة ٦٠ ،

و اصحاب الأصول ينتحلون المذاهب الفاسدة غير ان ذلك لم يكن فى رأيه ليغير من الأمر شيئا بل ذكر الطوسى فى الموضع نفسه ان كتبهم معتمدة (١).

و يقول السيد هانرى كوربان فى كتابه عن تاريخ الفلسفة الاسلامية هنالك مبدآن معياريان أولهما انه من غير العملى ان نعمد الى نقد سلاسل الاسناد من الخارج فغالبا ما يفقد هذا النقد فعاليته و انما الطريقة المجدية الوحيدة هى ننفذ الى الموضوع كظواهريين فنأخذ كل هذه السنن التى بقيت حية منذ أجيال و ذلك كما يظهر الفكر الشيعى موضوعه لنفسه من خلالهما و ثانيهما ان قد لا نجد فى سبيل تنسيق هذا العدد القليل من المسائل التى أخذناها بعين الاعتبار هنا و لاستخلاص الفلسفة النبوية منها فيما بعد خيرا من اتباع المؤلفين الشيعة أنفسهم و المسائل التى قاموا بشرحها(٢) و هذا التوجيه ربما حل مشكلة ابقاء مثل الطوسى أحاديث موضوعة فى مجموعته و انما يعثر عليه أن المنهج الاسلامى الذى يعطى للسند قيمته عند الشيعة كما عند السنة لا يماشى ما قاله السيد كوربان و لذلك نجد شخصية عظيمة الأهمية لا من الوجهة العلمية فقط بل و من الوجهة المذهبية و هى شخصية السيد موسى الصدر يقول فى التعليق على هذه المحل من كتاب كربان ما يلى :

فى اعتقادنا ان طبيعة الاسلام كدين موحى به تستبعد المنهج الظواهرى فلا يمكن ان ينظر الى كلام النبى (و الامام عند الشيعة) بظواهرية بل لابد من تدقيق سلسلة الاسناد و نرى ان الدين المنزل يستتبع النقل كمنهج و ذلك لان ما يأخذ به النبى يوخذ مطلقا و ما يتركه يترك مطلقا و لا يعرف ما أخذه النبى و ما تركه إلا

---

(١) نفس المصدر.
(٢) هانرى كوربان تاريخ الفلسفة الاسلامية صفحة ٨٢ طبعة عربية.

بالنقل و تتبع سلاسل الاسناد و الشيعة أكثر الفرق الاسلامية الحاحا على قضية النص عموما و النص على إمامة على خصوصا ثم نص على على إمامة الحسن و نص الحسن على إمامة الحسين و هكذا ، و اذن فان الوجدان الشيعى لا ينظر إلى حديث النبى أو الامام بصورة ظواهرية بل ينظر دائما إذا كان الحديث صحيحا أو فاسدا متواترا أو ضعيفا ففى الأولى يستفاد منه حكم شرعى أو غير شرعى من جهة و من جهة يكون محلا لتذكر عميق ، أما فى الحالة الثانية فيلقى به بعيدا و ان كان يظل فى الامكان دراسة من ناحية ظواهرية ، و من ناحية وضعية ليفهم منه اتجاه العصر ، و لكن الحديث الفاسد أو غير الثابت لا يمكن أن يشارك فى فلسفة نبوية أبدا و لعل هذا المنهج الذى اعتمده الأستاذ المؤلف كوربان هو الذى قاده الى الاعتماد على شروح الملا صدر و مرد ماد وحيدر املى لنصوص الائمة و الى ان تقتصر عليها فسينتهى إلى أن التشيع و التصوف و العرفان أمر واحد .

و على كل فقد وضع الطوسى مجموعا هائلا فى أحاديث الشيعة اشتغل به الكثيرون من رجال المذهب و بيّنوا ما فيه من صحيح و ضعيف و لم ينقص ذلك من قيمته عندهم فقد قال العلامة بحر العلوم فى الثناء على مؤلف التهذيب و الاستبصار ، و أما الحديث فإليه تشد الرحال و به تبلغ رجاله غاية الآمال و له فيه من الكتب الأربعة التى هى أعظم كتب الحديث منزلة و أكثرها منفعة كتاب التهذيب و كتاب الاستبصار و لهما المزية الظاهرة باستقصاء ما يتعلق بالفروع من الأخبار خصوصا التهذيب فانه كاف للفقيه فى ما يبتغه من روايات الأحكام يغنى عما سواه فى الغالب و لا يغنى عنه غيره فى هذا المرام مضافا الى ما اشتمل عليه الكتابان من الفقه و الاستدلال و التنبيه على الاصول و الرجال و التوفيق بين الاخبار والجمع بينهما

بشاهد النقل و الاعتبار(١)

آراء الطوسى الحديثية

يقسم الطوسى فى مقدمة كتاب الاستبصار الاخبار الى ضربين متواتر و غير متواتر فالمتواتر منها ما أوجب العلم فما هذا سبيله يجب العمل به من غير توقع شئ يضاف اليه و لا أمر يقوى به و لا يرجع به على غيره و ما يجرى هذا المجرى لا يقع فيه التعارض و لا التضاد فى أخبار النبى صلى الله عليه و سلم و الائمة عليهم السلام و ما ليس بمتواتر على ضربين فضرب منه يوجب العلم أيضا و هو كل خبير تقترن اليه قرينة توجب العلم و ما يجرى هذا المجرى يجب ايضا العمل به و هو لاحق بالقسم الأول و القرائن منها ان تكون مطابقة لأدلة العقل و مقتضاه و منها أن تكون مطابقة لظاهر القرآن أما لظاهره أو لعمومه أو دليل خطابه و فحواه ، فكل هذه القرائن توجب العلم و تخرج الخبر عن حيز الأحاد و تدخله فى باب المعلوم ، و منها ان تكون مطابقة للسنة المقطوع بها إما صريحا أو دليلا أو فحوى أو عموما و منها ان تكون مطابقة لما اجمع عليه المسلمون و منها ان تكون مطابقة لما أجمعت عليه الفرقة الشيعية فان جميع هذه القرائن تخرج الخبر من حيز الأحاد و تدخله فى باب المعلوم و توجب العمل به ،

و أما القسم الآخر فهو خبر لا يكون متواترا و يتعرى عن واحد من هذا القرائن فان ذلك خبر واحد و يجوز العمل به على شروط فاذا كان الخبر لايعارضه خبر آخر فاذا ذلك يجب العمل به لانه من الباب الذى عليه الاجماع فى النقل الا ان تعرف فتواهم بخلافه فيترك لأجلها العمل به و ان هنالك ما يعارضه فينبغى ان ينظر

---

(١) مقدمة طبعة الاستبصار للسيد حسن الموسوى الخرسان ،

فى المتعارضين فيعمل على أعدل الرواة فى الطريقين و ان كانا سواء فى العدالة و العدد و هما عاريان من جميع القرائن التى ذكرناها نظر فان كان العمل بأحد الخبرين يعتبر عملا بالآخر على ضرب من التأويل كان العمل به أولى لأنه عمل بالخبرين معا(١) ان هذه الطريقة التى يذكرها الطوسى فريدة فى بابها و هى تعتمد على سعة الأفق و قوة خيال المؤلف أكثر مما تعتمد على الصناعة الحديثية و المهم انه يرى أولا — ان الدليل العقلى يؤيد صحة الحديث المروى و لو لم يكن متواترا — الثانى ان موافقة الحديث لظاهر القرآن أو اجماع الأمة أو إجماع الطائفة يعطيه درجة الحديث المقطوع به مع انه لا يلزم من هذه الموافقة صحة الحديث من جهة الرواية فيما نرى — الثالث انه يوجب العمل بالخبر الواحد الذى لا يعارضه خبر آخر و يعتبر ذلك من باب الإجماع بالنقل و هو رأى طريف و استدلال بالسلب على الاثبات — الرابع اذا تتبعنا ضروب القرائن التى نقلناها عن الشيخ و وسائل الجمع لا يمكن طرح أى حديث ينسب للرسول أو الائمة لانه لابد ان يدخل فى واحد منها و هذا فى الواقع اعتماد على الفكر لتبرير ما روى من الأخبار غير الصحيحة و لو كانت ظاهرة الوضع و لعل هذا هو الذى حمل بعض علماء الشيعة على انتقاد الشيخ الطوسى و أسلوبه فى الرجال و الحديث.

و أهم آرائه الحديثية أنه يقول بحجة خبر الواحد الثقة و قد ادعى على ذلك الإجماع و بذلك خالف الاتفاق الواقع بين أستاذيه الكبيرين شيخ الأمة المفيد و عالم الهدى المرتضى و من قبلهما الشيخ الكلينى صاحب الكافى فلقد كان منع العمل بالخبر الواحد معروف بينهم معرفة منع القياس و الاستحسانات ، فسيره الشيخ قدس سره

---

(١) الطوسى الاستبصار صفحة ٣ — ٤ ،

مستصاغا مألوفا حتى يومنا هذا(١) .

على ان الطوسى قال فى التبيان ما يأتى و هذا الخبر عندنا و ان كان خبرا واحدا لا يجب العمل به انتهى(٢) و هى جملة تدل على عدم اعمال الطوسى لخبر الواحد فاى رأيه اعمل .

كتب الطوسى فى علم الكلام

للطوسى مؤلفات عديدة احصاها مترجموه الكثيرون و ذكرنا بعض ما له صلة منها بالمدرسة الكلامية كتب الحديث و سنجتزئ هنا بذكر مؤلفاته فى علم الكلام قبل ان نعرض لبعض آرائه التى هى عطاء لهذا العلم و كتابه التبيان فى تفسير القرآن مهم جدا فى التعريف بآرائه الكلامية و طرق استنباطه للأدلة التى تؤيد نظرية أو تسند المذهب الشيعى الإثنى عشرى على العموم فمن أهم مؤلفاته :

١- تلخيص الشافى فى الإمامة و هو إختصار لكتاب أستاذه السيد المرتضى المسمى بالشافى .

٢- كتاب المفصح فى الإمامة أيضا ألفه قبل تلخيص الشافى كما صرح بذلك فى خاتمة التلخيص .

٣- الغيبة و هو كتاب يتعلق بغيبة الإمام الحجة المهدى المنتظر عند الشيعة محمد بن الحسن العسكرى و يجيب فى هذا الكتاب عما يفرض من الأسئلة و الشبه عن غيبة الإمام و الحاجة إليها و سبب طولها مع شدة الحاجة إلى خروجه .

٤- كتاب ما يعلل و ما لا يعلل و هو فى علم الكلام .

٥- تمهيد الأصول و هو شرح لكتاب عمل العلم و العمل للشيخ

---

(١) حسين بحر العلوم مقدمة تلخيص الشافى صفحة ٢٧ ،

(٢) الطوسى التبيان فى تفسير القرآن صفحة ٩ الجزء الاول ،

السيد المرتضى.

٦- أصول العقائد و هو كتاب كبير فى العقائد لم يخرج منه إلا مبحث التوحيد و شئ من مبحث العدل.

٧- أنس الوحيد و هو مجموع ذكره الطوسى فى الفهرست عند ترجمته نفسه و تعداد تصانيفه.

٨- المسائل الرازية فى الوعيد و هى عبارة عن خمس عشرة مسألة وردت من الرى على أستاذه السيد المرتضى و أجاب عنها الطوسى.

٩- مقدمة فى المدخل إلى علم الكلام و شرحها المعروف برياضة المعقول.

١٠- كتاب النقد عن ابن شادان فى مسألة الغار.

١١- مسائل فى الفرق بين النبى و الإمام.

و تلك قائمة لاحد عشر كتابا فى علم الكلام و لاشك ان للطوسى غيرها فى هذا الفن كما فى غيره و هى على كل حال كافية لمن أنكب على دراستها لمعرفة كل آراء و المذهب الشيعى و رجاله الذين عاصرهم أو تتلمذ عليهم و مع اننا لم نقف على هذه المؤلفات كلها و ليس لنا من الوقت ما يسمح لنا بدراسة مستوفاة الى ان أطار هذا المؤتمر لا يسمح بالتفصيل فسنجتزئ بالاشارة لبعض آرائه المهمة فى هذا العلم و هى تنم عما وراء ها.

بعض آراء الطوسى الكلامية

الإمامة هى النقطة الاساس التى تميز الشيعة عن غيرهم من الفرق الاسلامية و ما النقط الأخرى إلا عوارض أدت إليها المجادلة لتثبيت النقطة الاساس و علم الامامة يستدل على فكرة الإمام بالوجه المزدوج للحقيقة المحمدية الباقية و التى تشتمل على ان دور الولاية يتلو

دور النبوة و الامام هو الهادى الذى لاغنى عنه فى معانى الكتاب المسطور فتأخذ به نورا إلاهيا و رؤيا داخلية و فهما روحانيا ، فعلم الامامة هو نتيجة بديهية و أساس للفلسفة النبوية فتكون المسألة هى من يشغل بعد النبى صفة ملهم الكتاب(١).

و أصول الدين عند متكلمى الشيعة خمسة التوحيد و ما يشتمل عليه من معرفة الصفات ثم العدل و النبوة فالامامة و المعاد .

و لذلك نجد الطوسى يعتبر الإمامة و الاشتغال بأمرها أهم ما يجب على المكلف بعد النظر فى معرفة الله و صفاته لانه لايتم التكليف بدونها و لا يحسن مع ارتفاعها (٢) و ذلك من وجهين ، الوجه الأول ما ثبت من كونها لطفا فى التكليف العقلى فى عقل كل عاقل فمتى لم يعرف المكلف الإمامة مع ما تقرر فى عقله من كونها لطفا أداه ذلك إلى الشك فى عدل الله تعالى و انه يخل بشرائط التكليف و الا يزيح عن المكلفين فيما يكلفهم و هذا هو الكفر بالله تعالى . الوجه الثانى انه اذا استقر فى الشريعة أفعال هى الطاف للمكلفين الى ان تقوم الساعة فمتى لم يعلم ان لها حافظا من ورائها يحفظها و يقوم بأعبائها لم يأمن ان لم يصل اليه ما هو لطف الله فيؤ ديه ذلك الى الشك فى عدل الله (٣). و بعد ما يشرح الطوسى الخلاف القائم بين الناس فى مسألة الامامة يعود فيؤ كد و جوبها عقلا بما انها لطف كما يدل على ذلك ما نراه من أثر وجود الحاكم الذى يردع الناس عن الشر و يعمل على اصلاح أحوالهم و يعتبر هذا موجبا للعلم الضرورى لان الامامة لطف ، ثم يذهب فى تفصيل الفروض المعارضة و الاجابة عنها و يخلص به النقاش الى القول بجواز تعدد الأئمة و يخص الإجماع على ان الامام

---

(١) انظر كربان تاريخ الفلسفة الاسلامية الجزء الاول صفحة ٩٥ ،
(٢) الطوسى تلخيص الشافى صفحة ١ ،
(٣) الطوسى التلخيص ،

و حد بمن لايجرى مجرانا و لانعرف أخباره و لايعرف أخبارنا لان هؤلاء فى نظره بمثابة الملائكة و الجن(١)

على ان معرفة الامام ليست دائما لطفا بل تكون تارة واجبة من حيث انه لايتم شكر المنعم إلا بها و يمضى الطوسى فى الجواب عما يفرضه من أسئلة ترد عليه و يقول فان قال قائل فعلى هذا الجواب بينوا العلة لأجلها استطر عن اوليائه ليتم لكم ما ذكرتموه و الا فمتى لم تبينوا ذلك كنتم معتمدين فى ذلك على مجرد الدعوى و يجيب على ذلك بانه لا يلزمنا بيان ما طلبت لانه متى علمنا ان الامام لطف لجميع المكلفين و سلمنا ايضا انه متى ارتفع اللطف لعلة لا ترجع للمكلف نفسه و متى كانت راجعة الى غيره يجب سقوط التكليف عنه ، ثم ثبت لزوم التكليف لسائر المكلفين علمنا انه انما ثبت لأمر راجع اليه يتمكن من ازالته و الا لم نعلمه الى التفصيل ، و فرض الطوسى ان يصل الى قوله ان ألعلة فى استطار الامام انما هى موجودة فى أعداء الامام و ليست حاصلة فى أوليائه ولا يلزم اسقاط التكليف عنه اذ متى هيأ الله أسباب ظهوره لاجادة الجو الصالح لذلك ظهر فعرفه المؤمنون به و اطمأنوا اليه و لاعماله و لاتصافه بصفات الامام المعترف بها و هى ضربان.

أحد هما يجب أن يكون الإمام عليها من حيث كان إماما مثل كونه معصوما أفضل الخلق و الثانى يجب ان يكون عليها لشىء يرجع الى من يتولاه مثل كونه عالما بالسياسة و بجميع أحكام الشريعة و كونه حجة فيها و كونه أشجع الخلق و جميع هذه الصفات توجب كونه منصوصا عليه و فى غضون ذكر الصفات و الاحتجاج لها يدلى الطوسى بآراء مهمة كقوله ان الذى لا يعرف الامام لا يعرف كثيرا من الشرعيات ان الشريعة لا تحفظ بالامة لان ما جاز على أحدها من

(١) نفس المصدر صفحة ٨١ ،

احتمال الخطأ يجوز على جميعها (١)

و الخلاصة ان الامامة لا تكون إلا بالنص من الله و الرسول لا بالبيعة و الاختيار من جانب الناس و ان من الواجب أن ينص كل امام على خلفه ، و الامام معصوم و العصمة أمر خفى لا يعلمه إلا الله فلابد ان يكون النص من جانب الله لانه و حده يعلم بالعصمة .

و الشيعة و الاسماعيلية يعتقدون فى وجوب عصمة الإمام خلافا لباقى الفرق من السنة و المعتزلة و يستدل الطوسى بوجوب عصمة الامام انه بها يخرج عن العلة المحوجة للامام و الا أدى ذلك الى ما لانهاية له من الائمة أى انه ان لم يكن معصوما يجب التسلسل لاحتمال الخطأ فى كل أحد فيحتاج كذلك إلى إمام يقوم و هكذا الى مالا يتناهى أو تقف السلسلة على شخص معصوم عن الخطأ .

أنكر الطوسى استدلال أهل السنة بالإجماع الذى صدر من الصحابة على تولية أبى بكر و تأول الأحاديث التى تشهد للعمل بالإجماع كقوله عليه السلام لا تجتمع أمتى على ضلالة و قوله يد الله مع الجماعة ، و معنى هذا ان الطوسى لا يقول بالاجماع و لا يعتبره حجة ذلك ما تقتضيه مناقشته الطويلة العريضة للقائلين بحجية الإجماع فى التلخيص و فى غيره من كتبه .

رأى الطوسى فى الاجماع و مع ذلك فان مترجمى الطوسى ينسبون له القول بالإجماع و حجيته كواحدة من المسائل التى اختلف فيها مع أئمة الشيعة و لكن السيد الحسين بحر العلوم يقول ان شيخ الطائفة لا يريد بالإجماع المعنى المصطلح عليه عند القوم من اتفاق الكل على المسألة بل ربما يدعيه فهى مقابل آراء العامة للرد عليهم بما هو حجة عندهم حتى فى الأصول كمسألة الامامة

١- التلخيص صفحة ١٥٠ ،

و الخلافة أو يعتمد على قاعدة مسلمة مدروسة عنده و لذلك نراه ربما يدعى الإجماع فى حكم ما ثم يفتى بخلافه فى مكان آخر حتى لقد أحصى الشهيد رضى الله عنه أمثال هذه الإجماعات الصادرة منه بجمعها فى رسالة مستقلة طبعت فى آخر كتاب الألفية (١)

و معنى هذا انه يقارع أهل السنة بمبدأ يقولون به و هو الإجماع فيذكره لهم دليلاً عليهم لانهم يرونه حجة دون ان يكون هو قد آمن بحجيته و يبقى مع ذلك فى كلام السيد بحر العلوم تناقض لان الاجماع الذى يقول به أهل السنة الذين سماهم العوام هو اتفاق الكل على المسألة فالاستدلال عليهم انما هو بهذا المعنى .

رأى الطوسى فى القياس

و مما خالف الطوسى فيه أصول الشيعة انه كان ينهج منهاج أصحاب الرأى و القياس مع ان الشيعة أعداء القياس التقليدى بوصفه جرأة من الفقيه على ما لايجوز له و قد ألفوا كتبا فى إبطاله و رده و قبله رجال منهم كمحمد بن الكاتب الاسكافى و قد رووا عن سماعة ابن مهران انه قال لموسى بن جعفر أصلحك الله انا نجتمع فنتذاكر فلا يرد علينا شىء الا و عندنا فيه شىء مسطر و ذلك مما أنعم الله علينا بكم ثم يرد علينا الشىء الصغير ليس عندنا فيه شىء فينظر بعضنا الى بعض عندنا ما يشبه فنقيس على أحسنه فقال ما لكم و القياس انما هلك من هلك من قبلكم بالقياس إذا جاءكم ما تعلمون فقولوا به و ان جاءكم ما لا تعلمون فيها ، و أهوى بيده على فيه .

و قد سلك الطوسى فى الفقه مسلكين مسلك أصحاب الحديث و مسلك أهل الرأى و القياس و كان علماء الشيعة حتى عصر الطوسى يختارون منهج أهل الحديث فى الفقه و لما ألف أبو جعفر كتابه

١- بحر العلوم مقدمة التلخيص صفحة ٢٧ ،

المبسوط آثر فيه طريق أهل الرأى و قال انه كتاب لم يصنف مثله و لا نظير له فى كتب الأصحاب و لا فى كتب المخالفين و قد عبر عن طول شوقه لوضع مثل هذا الكتاب نظرا لما رسخ فى اذهان الطائفة من قلة الرغبة فى علم يقوم على غير طريقة الخبر و الرواية اذ ألفوا الأخبار و ما رووه من صريح الالفاظ حتى ان مسألة لو غير لفظها و عبر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم تعجبوا منها و قصر فهمهم عنها ، فعدل الى عمل كتاب يشتمل على عدد بجميع الكتب التى فصلها الفقهاء و هى نحو من ثمانين كتابا ، و الظاهر ان الطوسى الذى درس فقه المذاهب السنية تأثر بآرائهم فى القياس و نهج منهجهم فيه .

أخذ الطوسى بالاجتهاد

نقلنا رد الفعل الذى صدر من مترجمى الطوسى لما نسبه السبكى و صاحب كشف الظنون إلى الشافعية فقد قالوا انه كان مجتهدا لا يعتمد على أحد ولا يعتبر إلا ما يؤديه اليه فهمه للكتاب و السنة و قد رأينا انه كان يقول بأعمال خبر الواحد مخالفا فى ذلك شيخيه الرضى و المفيد كما يقول بحجية الإجماع طبق ما هو عند الأصوليين .

و يقول الشيخ محمد الصادق بحر العلوم ان الطوسى لم يكن مقلدا لأى أحد بل هو مجتهد مطلق لا يأبه إلا بما ساعد عليه الدليل و اقتضاه البرهان الصادق و لقد حاز الثقة التامة من طبقات الشيعة جمعاء فى رواية الحديث و تحليله .

أما السيد حسين بحر العلوم فيقول فى مقدمة التلخيص كيف يتصور من عرف شخصية الشيخ و كبرياءه العلمى و استقلاله الذاتى فى الرأى — و لا أظن السبكى و رفيقه يجهلان ذلك — كيف يتصور هؤلاء انضواء مثل هذه الشخصية العملاقة تحت أشعة مذهب ثم ذكر

لهم مظاهر اجتهاده انه كان لايرى تنجيس ما لايدركه الطرف من الدم للماء القليل او للمائعات كما فى بعض كتبه و هو أول قائل بهذا الرأى من فقهاء الشيعة القدامى و اصبحت المسألة أخيرا موردا للخلاف فى خصوص الماء ، و من اجتهاداته عدم قوله بحرمة تصوير ذوات الأرواح مطلقا ولو بنحو التجسيم و هو فى ذلك مخالف لما اتفق عليه الشيعة و غيرهم من الفقهاء .

تلك نماذج من آراء الشيخ الطوسى و طريقته فى العرض و فى الحوار و هى تدل على غزارة مادته و قوة عارضته و جرأته و اهتباله بما يتصدى له من علاج لكبريات المسائل و صعابها .

و مع من انجبت الطوس من الرجال العديديين فقد اختص من بينهم بمركز القداسة فى نفوس أهلها و فى نفس الطائفة جميعها و لا غرابة فى ذلك فقد أفنى حياته كلها فى خدمة المذهب و النضال فى سبيل بلورته و تركيز اسمه .

و اذا كان الغزالى عطاء الطوس لأهل السنة فمن المحقق أيضا أن أبا جعفر عطاء الطوس للشيعة الإثنى عشرية .

و يتفق الشخصيتان الكبيرتان فى ان كلاً منهما أحدث فى علم الكلام أثرا مرموقا متبعا اشتغل بأصول الفقه أشغاله بأصول الدين كما فلسف كل من الإثنين علم الكلام غير أن الغزالى بعدما درس المنطق و الفلسفة اليونانية عاد فرفضها ورد عن ابن رشد فى كتابه تهافة الفلاسفة مستعملا نفس الأصول المنطقية و الفلسفية ليبين للمدرسة الأرسقطية العربية ان قانونهم العقلى لايكفى فى إثبات العقيدة و انه لا بد من الدليل البرهانى المستمد من القرآن و السنة و المدعم بالقرآن و بالتجربة الروحانية بينما يظهر ان العلامة الطوسى نحا نحو ابن رشد وغيره من المشايين المسلمين و واصل الاستدلال بالأقيسة

المنطقية الصورية باذلا جهده فى الذب عن سلامة الأدلة حرصا على ما ألفه المتكلمون قبل إمام الحرمين الذين كانوا يظنون ان المدلول يبطل ببطلان دليله .

و قد بلغ الاثنان درجة الاجتهاد و ان بقيا متعلقين بأصول مذهبيهما الغزالى بالمذهب الشافعى و الطوسى بالمذهب الامامى فى الفقه .

و اشتهر كل من الرجلين بالزهد و الورع و التقوى اشتهارهم بقوة المعارضة فى مقاومة الخصوم و الذب عن الدين ازاء كل المذاهب المخالفة ، و قد عين كل منهما ليشغل كرسى العلوم الاسلامية ببغداد . و مهد كل منهما جو الالتقاء بين الشيعة و السنة فى صعيد المدرسة الصوفية التى تجاوزت نقط الاتفاق و الاختلاف و المنطق و القياس الى ميدان روحانى لايخطأ فيه أحد ولايسىء أحد الظن بأخيه اذا الماء و احد و الزهر أفنان ، و لولا ما طرأ من انحراف فى السياسة من بعد لكان هذا الالتقاء فى اطار التصوف سبيلا لوفاق اسلامى كامل ما يزال ينشده حتى اليوم المخلصون من أبناء الملة المحمدية على اختلاف نزعاتهم لانهم يقرأون فى كتاب ربهم و ان هذه أمتكم أمة واحدة و أنا ربكم فاعبدون .